المرجعية الفكرية و الحضارية لتأويل القرآن عند سيد قطب

محمد أمين دكار[1]

لقد كان منهج السيد في تفسير القرآن الكريم وتذوقه يختلف تبعا لمجموعة من الدواعي، حيث كانت دواعي هذا الإقبال وأغراض الدراسة خاضعة لاهتماماته خاصة، وأهدافه الشخصية[2] ويمكن تقسيم هذه الدواعي إلى:

أولا: الدواعي والاهتمامات الأدبية التي استغرقت فترة طويلة من حياته، وانتهت فيما بعد منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، بعدما ألّف كتابه (مشاهد القيامة في القرآن).

ثانيا: الدواعي والاهتمامات الفكرية، بعدما ترك الاهتمامات الأدبية، حيث صار مشغولا بالأمور الفكرية والإصلاحية والإسلامية، واستمرت هذه الاهتمامات إلى أن دخل السجن سنة 1954م.

ثالثا: الدواعي والاهتمامات الحركية والدعوية والجهادية، وهي التي لازمته طيلة حياته في السجن، وبعدما أفرج عنه.[3]

ويمكن اختصارا أن نقول أن منهجه في دراسة القرآن وتفسيره مر بالتدرج عبر مراحل ثلاثة:

*المرحلة الأولى: المنهج الجمالي، واستعمل فيه المفتاح الجمالي الذي فتح به كنوز القرآن الفنية والجمالية.

*المرحلة الثانية: المنهج الفكري، حيث تناول فيه القرآن الكريم من زاوية عقلية فكرية.

*المرحلة الثالثة: المنهج الحركي، واستعمل فيه المفتاح الحركي الذي فتح به كنوز القرآن الحركية المذخورة فيه.[4]

إن الحديث عن المنهج الجمالي في دراسة القرآن وتفسيره عند سيد قطب ظهر نتيجة المحاولة الأدبية التي قام بها انطلاقا من دواع أدبية وفنية. ويمكن ن نرجع هذا الاهتمام إلى سنة 1939م، عندما نشر مقالا بعنوان" التصوير الفني في القرآن الكريم"بمجلة المقتطف.[5]

ويعتقد الكير أن المنهج الحركي عند سيد قطب هو مجموعة من الأبحاث، والتي نجدها في كتابه الظلال، حيث وجد الإشارة إلى أن هذه الموضوعات المنتقاة من الظلال ليست أكثر من موضوعات

---

[1] أستاذ مساعد، شعبة الفلسفة، جامعة سعيدة

[2] صلاح عبد الفتاح الخالدي المنهج الحركي في ظلال القرآن ،ج2 –دار الشهاب ، الجزائر– 1988 –ص:13

[3] نفسه – ص:13

[4] نفسه –ص14.

[5] لمزيد من التوسع ينظر إلى المقتطف حيث جمعت أعدا هذ المجلة في مجلدات تسعة، ج2, ج3 –أعداد فبراير ومارس 1939م

للدراسة تحوي إشارات في المنهج. وقد كان من ثمرة هذا الخطأ في هذا الاعتقاد الذي قلنا عنه سابقا أن بهتت صورة المنهج عند الكثيرين، حتى وإن لم يعبروا عن ذلك صراحة.[1]

منهج الحركة الإسلامية عند السيد قطب.

يقول سيد قطب:" يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا أنه كما أن هذا الدين رباني، فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك، متوافق مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل."[2]

إن الحديث عن المنهج الحركي عند سيد قطب يقودنا مباشرة إلى الحديث عن الطريقة التي يعتمدها مفكرو وعلماء الإسلام بغية تحقيق أهدافهم، ومن ضمنها الهدف المعلن، وهو انتصار الإسلام على باقي القوى الديني أو الوضعية المنافسة له والمناهضة له، بالإضافة إلى تفعيل دور الإسلام في الواقع المعاش.وهنا طرح سيد قطب على نفسه جملة من الأسئلة تستدعي الإجابة عنها بعدين اثنين نظري وعملي. ومن جملة الأسئلة التي طرحها سيد قطب:

ما هي أفضل الطرق الواجب على الدعاة اتّباعها؟

هل هناك منهج رباني واضح المعالم وجب اتّباعه؟

وإن كان هناك منهج رباني فإنه سيأخذ صفة الإلزام في اتِّباعه وتنفيذه، فكيف ذلك؟

هل هذا المنهج متروك للاجتهاد في صياغته أم أنه جاء واضحاً بيِّن المعالم؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها عند سيد قطب هي التي تحدد لنا مدار العمل الإسلامي.

يمكن القول أن كتابيه "–معالم في الطريق، و–في ظلال القرآن، هما المؤلفان اللذان صاغ فيهما الإجابة عن مجموعة كبيرة من الأسئلة والتي سبق لنا أن طرحناها، بالإضافة إلى كتابه "هذا الدين"[3]

إن رؤية سيد قطب القائمة على المقولات، والتي مصدرها الأساس هو الخطاب القرآني مع الفهم الصحيح لهذا الخطاب، لأنه يحذّر من أن " المسألة في إدراك القرآن وإيمائته ليست هي فهم ألفاظه وعباراته، ليست هي تفسير القرآن الكريم –كما اعتدنا أن نقول!–... إنما هي استعدا النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك... في هذا الجو التي تنزلت فيه آيات القرآن حيّة نابضة... كان للكلمات والعبارات دلالاتها وإيحاءاتها. وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولة استئناف

---

[1]– محمد توفيق بركات –سيد قطب، خلاصة حياته، منهجه في الحركة، النقد الموجه إليه –مكتبة المنار، مكة المكرمة السعودية – ج7–ص91

[2]– سيد قطب – في ظلال القرآن، ج7 – ص:91

[3]– ظهر هذا الكتاب أول مرة سنة 1961م على شكل مقالات في "مجلة الحضارة الإسلامية" حيث لم يصرح سيد قطب باسمه واكتفى بكتابة حرف (ن) ثم تتالت طبعاته دون الإشارة إلى مكان النشر أو دار النشر.

الحياة الإسلامية من جديد، يفتح القرآن كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره، ويُشيع عطرهن ويكون فيه هدى ونور."[1]

التصورات العامة للمنهج الحركي عند سيد قطب.

إن المحور الوحيد هو الصراع العقَدي بين حكم الإسلام المنشود وحكم الجاهلية الموجود. " فالمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وهذا ينبغي أن يكون واضحا."[2] وهنا يريد سيد قطب أن يوضح أن هناك تعارضا كاملا بين فكرتين وتصورين ومجتمعين وحقيقتين: الإسلام والجاهلية، الإيمان والكفر، الحق والباطل، الخير والشر، حاكمية الله وحاكمية الشر، الله والطاغوت ... ولا سبيل إلى المصالحة أو الوساطة بينهما، ومن ثم لا بقاء لأي منهما إلاّ بالقضاء على الآخر. ومن هنا لا يهم من أمر العالم المعاصر مجمل الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية الذي يتخذ أشكال صراع الشرق والغرب، أو الشمال والجنوب، أو المركزِ والأطراف، أو علاقات السيطرة والتبعية.[3]

يختلف المنهج الإسلامي في شكله ومضمونه عن كافة الأنظمة البشرية الوضعية على اختلاف مبادئها وأهدافها وآلياتها (الشمولية الشيوعية الليبرالية الرأسمالية) لأن "فيه وحده يتحرر الناس من عبادة بعضهم لبعض بعبادة الله وحده، والتلقي من الله وحده، والخضوع له وحده، ورفض الإقرار بالحاكمية لأحد من دون الله، ورفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة، وهذا هو الجديد كل الجِدة الذي نملكه ولا تعرفه البشرية."[4]

إن الأنظمة السياسية اليوم تحكم بغير ما أنزل الله وتتنكر لمبدأين أساسين، حيث جاءت الدعوة الإسلامية لكي تقيمهما:

أولا: ألوهبة الله في مواجهة ألوهية البشر.

ثانيا: حاكمية الله ضد حاكمية البشر الذين يعبدون بعضهم البعض. ويؤكد سيد قطب أن معظم الأنظمة السياسية في أقطار العالم الإسلامي لا تعتبر أنظمة إسلامية، فهي تنص في دساتيرها نظريا على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي و المصدر الرئيس في التشريع، ومعظم حكامها يعملون في الواقع على نفي واستبعاد المبدأين.[5]

---

[1]– سيد قطب – خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، القسم الأول :خصائص التصور الإسلامي –دار القرآن الكريم للعناية بطبعه ونشر علومه – شتوتجارد، ألمانيا، 1998م ص: 16

[2] – سيد قطب – معالم في الطريق – ص:158

[3]– محمد حافظ دياب – سيد قطب، الخطاب والإيديولوجيا – موفم للنشر، الجزائر، 1991م – ص:111

[4]– سيد قطب – معالم في الطريق – ص: 158

[5]– محمد حافظ دياب –سيد قطب، الخطاب والإيديولوجيا – مرجع سابق – ص: 111

إن الهدف من وراء هذا المنهج عند سيد قطب هو إعلان خلاصه وتحريره على وجه الأرض بحكم أنه خليفة الله في أرضه، ويذكرنا أن "قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال... لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست ماديا، أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية، ولكن لأن النظام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيدا من القيم يسمح له بالقيادة، ولا بد من قيادة تملك بقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية عن طريق العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي، وتزود البشرية بقيم جديدة جدّة كاملة – بالقياس إلى ما عرفته البشرية– وبمنح أصيل وإيجاب وواقعي في الوقت ذاته، والإسلام وحده هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج."[1]

عن المنهج الإسلامي ليس إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا، بل حركي واقعي إيجابي، يراد له التحقق في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد على العبودية لله وحده، ومن ثم لا بد من أن يتخذ شكل الحركة (إلى جانب شكل البيان) ليواجه شكل الواقع البشري بكل ما يحمله من تصورات اعتقادية منحرفة وباطلة وعقبات مادية وسياسية واجتماعية.[2]

إن المعركة الحقيقة في نظر سيد قطب هي معركة دينية تاريخية بالأساس، فهي معركة صليبية في مضمونها وليست معركة اقتصادية أو سياسية، ويضيف قائلا:"فهدف الإسلام لم يكن في يوم من الأيام هو تحقيق القومية العربية، ولا العدالة الاجتماعية، ولا سيادة الأخلاق، ولو كان الأمر كذلك لحققه الله في طرفة عين، ولكن الهدف هو إقامة مجتمع الإسلام الذي تطبق فيه أحكام القرآن تطبيقا حرفيا. وأول هذه الأحكام أن يكون الحكم نفسه لله وليس لأي بشر أو جماعة من البشر، وإن كان حاكم إنسان بل أي مسؤول إنسان إنما ينازع الله سلطته، بل إن الشعب نفسه لا يملك حكم نفسه، لأن الله هو الذي خلق الشعوب وهو الذي يحكمها بنفسه."[3]

تنحصر مهمة المنهج الإسلامي أساسا في تغيير واقع المجتمع الإسلامي، "... مهمتنا تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه، هذا الواقع يصطدم اصطداما أساسيا بالمجتمع الإسلامي وبالتصور الإسلامي."[4]

ماهية المنهج عند سيد قطب.

يُعرف سيد قطب منهجه على أنه "ليس نظرية تتعامل مع الفروض، إنه منهج يتعامل مع الواقع."[5] والمتأمل للخطاب القطبي يجده يموضع المناهج داخل منهجين:

*منهج الله: وهو يبنى التصور الاعتقادي ويعتمد على الإيمان.

---

[1]– سيد قطب – معالم في الطريق، مصدر سابق – ص:4

[2]– محمد حافظ دياب –سيد قطب، الخطاب والإيديولوجيا – مرجع سابق – ص: 112

[3]– سيد قطب – معالم في الطريق، مصدر سابق – ص:56

[4]– نفسه – ص:19

[5]– نفسه – ص: 33

*منهج الإنسان: وهو يصوغ مصادرات وفرضيات وقضايا وقوانين ويعتمد على البرهان."[1]

من جهة أخرى نجد أن سيد قطب يساوي أو يعادل الخطاب بين المنهج والدين، فنجده يقول:" فكل دين هو منهج للحياة بما أنه تصور اعتقادي... كذلك عكس هذه العبارة صحيح. عن كل منهج للحياة هو دين."[2] لهذا نجده يطلق عليه أنه منهج إلهي، ومنهج قرآني، منهج رباني قويم، منهج مبارك، منهج الله للحياة البشرية، منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام، المنهج العلمي الحركي الجاد.

ويربط سيد قطب تعريف المنهج بالإسلام: "فالإسلام منهج، منهج حياة، حياة بشرية واقعية بكل مقوماته، منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني... ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي قوم عليها والسلطة التي يُستمد منها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته."[3]

من جهة أخرى يفرق سيد قطب بين المنهج الإسلامي الحركي وسائر المناهج الأخرى، ذلك أن هذا المنهج يتصف بأنه من إبداع الله، حيث ضمّنه مفهومات القوامة والتصورات والقيم بالإضافة إلى كونه جاء حاملا لمجموعة كبيرة من التشريعات والقوانين، حيث نجده يقول:"إن مفرق الطريق بين هذا الدين وسائر المناهج غيره. إن الناس في نظام الحياة الإسلامي يعبدون إلهَاً واحدا، يفردونه سبحانه، بالألوهية والربوبية والقوامة –بكل مفهوم القوامة– فيتلقون منه وحده التصورات والقيم والموازين والأنظمة والشرائع والقوانين والتوجيهات والأخلاق والآداب ... بينما هم في سائر النظم يعبدون آلهة وأربابا متفرقة، يجعلون لها القوامة عليهم من دون الله، حين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأنظمة والشرائع والقوانين، والتوجيهات والآداب والأخلاق من بشر مثلهم، فيجعلونهم بهذا التلقي أرباباً، ويمنحونهم حقوق الألوهية والربوبية والقوامة عليهم ... وهم مثلهم بشر... عبيد كما أنهم عبيد."[4]

يرصد سيد قطب أربع سمات حركية للمنهج من حيث أنه "منهج يتميز بالطابع الأنطولوجي الذي يجاوز حدود الزمان والمكان."[5] وهذه السمات هي:

الواقعية الجديدة.

الواقعية الحركية.

---

[1] – محمد حافظ دياب – سيد قطب /الخطاب والايديولوجيا –مرجع سابق –ص:121

[2]– سيد قطب – المستقبل لهذا الدين، مصدر سابق – ص:14

[3]– سيد قطب – المستقبل لهذا الدين، مصدر سابق – ص:3

[4]– سيد قطب – المستقبل لهذا الدين، مصدر سابق – ص:8 و 9

[5]– محمد حافظ دياب – سيد قطب، الخطاب والإيديولوجيا –مرجع سابق –ص:122

عدم الخروج على قواعده المحددة.

الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى.

لقد كان سيد قطب حريصا على بيان منهجه من حيث الاعتماد على المصدر اليقيني متمثلا في النص القرآني والنص النبوي، حيث نجده في كتابه "خصائص التصور الإسلامي" جعل له تمهيدا بعنوان: "كلمة في المنهج"، وأوضح منهجه في ذلك بجلاء."[1]

ونجد سيد قطب، فيما يخص اعتماده على المصدر اليقيني، يقول: "... ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم ألاّ نواجه بمقررات سابقة إطلاقا، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية –من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته– نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة.

[1]–صلاح عبد الفتاح الخالدي – في ظلال القرآن في الميزان– شركة الشهاب، الجزائر، ط1 1986م –ص:43